السلطان الصالح أيوب
(٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م):

- اهتم الصالح أيوب منذ جلوسه على عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم، وقد أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهالي من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال.

- وهنا رأى الصالح أيوب أن يبعدهم عن العاصمة فابتنى لهم سنة (٦٣٨ هـ/١٢٤١م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة وأسكنهم بها كما اتخذها مقرًا لملكه وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والمؤن وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية.

والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين أبعد ما يكونون من الخجل من أصلهم أو فصلهم أو نشأتهم بل طالما افتخروا بأنهم مماليك لأن علاقة المملوك بسيده في الشرق عامةً علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الحكومة والإدارة والجيش.

- وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار كما ذكر جوانفيل.
- حيث جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود.
- وبينما تستقر الأمور للصالح أيوب في مصر والشام إذا بالأنباء تصله بأن حملة صليبية في طريقها إلى مصر وأن قائدها الفرنسيس (أي ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس)

الحملة الصليبية السابعة

- وإذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧ م) هو الذي بعث إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة
- فإن سقوطها في سنة (٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م) في يد الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية، كان السبب

- الذي أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر.

- تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عمومًا في أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوروبيين، بل فرنسية أغلبها من الفرنسيين لانصراف ألمانيا وإيطاليا وقتذاك إلى النزاع الإمبراطوري البابوي .
- أبحر الأسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا في خريف سنة ١٢٤٨م إلى جزيرة قبرص.

- ثم اتجهت إلى مصر بعد أن بلغ عدد رجالها حوالي الخمسين ألف محارب وصحب الملك أخوه شارل دي أنجوا، وروبرت دي أرتوا .
- وعلم الملك الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل في غزو مصر فعسكر بجيوشه جنوبها في بلدة أشموم طناح .

- أمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب بني كنانة .
- كما أرسل جيشًا إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف .
- ثم وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية قبالة دمياط في ١٢٤٩م وفي اليوم التالي نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات .

- انسحب بعدها الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح وتعبه الأهالي وهم مذعورين
- واحتل الصليبيون المدينة بسهولة فاستشاط السلطان الصالح أيوب غضبًا لما وقع .
- اضطر السلطان إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة .

- أخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد إلى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم.
- وصارت العمليات الحربية في تلك الأثناء مجرد غارات يشنها الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين.
- واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر.

- توفي الملك الصالح فقامت زوجته شجر الدر بتدبير شئون الدولة .
- كما أرسلت إلى ابن زوجها وولي عهده تورانشاه تحثه على القدوم إلى مصر ليعتلي السلطنة بعد أبيه.
- وبسبب الخيانة لم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم في المعسكر فانتشر الذعر بين الجند.

- واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت دي أرتوا أحد أبواب المنصورة وواصلوا هجومهم في إلى داخل المدينة يقتلون المصريين يمينًا وشمالاً .

- جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية قواها خارج المدينة ثم أطبقت على الفرنج بقيادة الأمير بيبرس البندقداري فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة .

- قدم تورانشاه إلى مصر (٢٧ فبراير ١٢٥٠م) فأعلنت شجر الدر وفاة الصالح أيوب وسلمته مقاليد الأمور.

- تولى السلطان الجديد قيادة الجيوش بنفسه وأخذ في تدبير خطة لإجبار لويس التاسع على التسليم.

- اضطر لويس التاسع إلى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل الشامي، ولكن المصريين رفضوا هذه الشروط.

- أبلى المماليك البحرية الصالحية ولا سيما أقطاي وبيبرس قداري في فارسكور بلاءً حسنًا.

- ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه، بل قرر الإقامة مع المؤخرة كي "يحمي أصحابه" ولذلك تمكن المصريون من أسره وأسر من معه من الأشراف والفرسان.
- وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة إلى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ولم يبق إلا المفاوضات من أجل الصلح.

- الشيء الذي يؤسف له حقًا هو أن شعور المسلمين بزوال خطر الفرنج قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم.
- فاضطرمت المنازعات الداخلية وحيكت المؤامرات السياسية التي أدت إلى زوال دولة وقيام أخرى

- كره تورنشاه المماليك البحرية،مما نفر منه أمراء المماليك .
- المماليك يحنقون على السلطان تورانشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه من قبل أن يبطش بهم.
- وبموت تورانشاه ينتهي عصر دولة الأيوبيين في مصر.